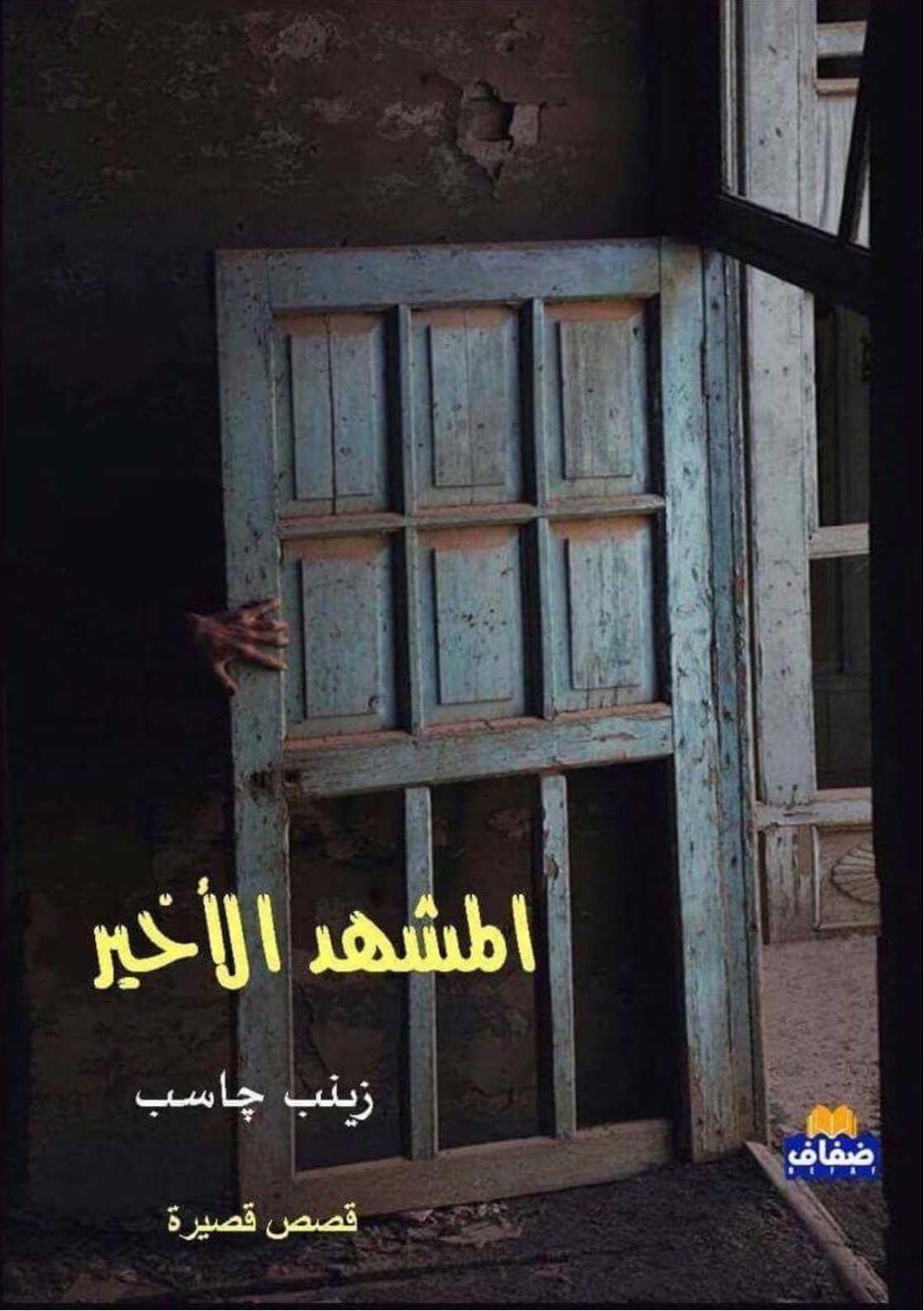
المشهد الأخير
زينب چاسب
ضفاف
قصص قصيرة

الكتاب: المشهد الأخير
المؤلف : زينب چاسب
الصنف: قصص قصيرة
الطبعة الأولى 2017 – حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

الناشر: دار ضفاف للطباعة والنشر والتوزيع defafpub@hotmail.com
الإدارة: الدكتور باسم الياسري
-قطر: الدوحة 00974-55898186 – Em:basim348@yahoo.com
-الإمارات العربية المتحدة: الشارقة ص. ب: 4293

- تصميم الغلاف: دار ضفاف للنشر
- صورة الغلاف بعدسة نور الدين صباح

التوزيع

العراق / بغداد/ شارع المتنبي/ مكتبات ضفاف /	تكريت: الابداع/ د.اسامة صادق 07710651968
الضياء/ نوري السلطاني ج: 07901870117	ميسان: علي العقابي 07709067178/
البصرة/ المكتبة الأهلية ج : 07703103005	دهوك: سراج عثمان/ 07724223169

* الآراء الواردة في هذا الكتاب تعبر عن وجهة نظر الكاتب، ولا تعبر بالضرورة عن رأي الناشر.

* لا يجوز نشر أي جزء من هذا الكتاب أو اختزان مادته بطريقة الاسترجاع، أو نقله على أي نحو، أو بأي طريقة الكترونية أو ميكانيكية ، أو بالتصوير ، أو بالتسجيل أو بخلاف ذلك، إلا بموافقة كتابية من الناشر ومقدما.

All rights reserved. No part of this publication may be reproduced stored in a retrieval system, or transmitted in any means,electronic, mechanical, photocopying ,recording ,or otherwise, without prior permission in writing of the publisher.

رقم الإيداع في دار الكتب والوثائق ببغداد 3572 لسنة 2017
تسلسل الكتاب في الدار: 256

المشهد الأخير

قصص قصيرة

زينب چاسب

إلى مريم

كلنا محكومون بالولادة وكلنا محكومون بالموت. وما عدا ذلك زبد تتركه الموجة على الساحل.

فاضل العزاوي

تشابه أقدار

في الشارع أسيرُ وحيداً على مهل. أقفزُ كلما عرضتْ لي بركةٌ صغيرةٌ أنتبه فجأةً لوجودها على نور مصابيح البيوت المجاورة. يبدو المكان خالياً من الناس هذه الليلة، ما عداي والظلام، او هكذا شعرتُ حينها.

كنتُ على وشك الخروج من الزقاق لأخرج إلى الشارع الرئيس وإذا بسيارة تركن أمامي. كادتْ تدوس قدمي اليسرى لولا لطف الله. انتفضتُ راجعاً إلى الخلف، أنظرُ إلى داخل السيارة، محاولاً فهم ما يجري. ترجّل شخصان ضخمان واقتربا مني بلمح البصر، أجفلتُ حالما رأيتُ لثامهما. أحاطا بيّ من جانبيّ وأمسكا ذراعيّ بقوة ثم قاما بشدّي وجذبي نحو السيارة. قاومتهما لأول وهلة.. حدقتُ بعيونهما مُستفهماً عمّا يُريدانه مني؛ وعبثاً حاولت.

نظراتهما الحادة أرعبتْني وأنا أرى نهايتي المجهولة وشيكة لا محالة، وصمتهما المطبق أجابني عن كلّ أسئلتي. أدلفاني في المقعد الخلفي للسيارة وهما لا ينفكان عن إحاطتي باذرعهما الثقيلة.

فكرتُ بأن أصرخ؛ لكن رؤيتي لامرأة أربعينية تطلّ برأسها من نافذة غرفتها، جعلني اصمت. هل رأتْني عن كثب؟ هل أمكنها

تمييز ملامحي وحفظ شكلي وهيأتي؟ أيمكنها سرد قصتي، فيما بعد، على مسامع السائلين عني؟!

***

عصبا عينيّ في الطريق وقيّدا يديّ خلف ظهري ولم أعُد أبصر سوى السواد. اقتاداني إلى مكانٍ عجزتُ عن تخيّله، فلا يمكنني تخمين شكله او موقعه، غير أنّني شعرتُ بأنّي في غرفةٍ عتيقةٍ شبه خالية، فصدى صرخاتي المتقطعة يعود إلى أسماعي عالياً. لم استطع تمييز شيء حولي سوى رائحة الإسمنت الرطب للجدران المهترئة.

أيقنتُ بعد لحظات أنني صرتُ بمفردي. كففتُ عن الصراخ والتمرد. عدتُ إلى الوراء بخطىً حذرة حتى عثرتُ على الجدار، والتصقتُ به لاستلقي قربه.

كاد النعاس يغلبني لولا رفسهم الباب بقوةٍ جعلتْني أهبُّ جالساً في مكاني. أحسستُ بأحدهم يقترب مني وصوت أنفاسه الحانقة يعلو شيئاً فشيئاً. بدأ بالصراخ عليّ وشتمي بشتائمٍ طالما سمعتهُا في الشارع وعلقتْ في ذاكرتي. كنتُ أخشى أن تفلتْ إحداها من لساني بوجود والدي. عدتُ أسند ظهري على الجدار

محاولاً إخفاء وجهي بين ركبتيّ، فالضربات مميتة، بلا شكّ، من قبضة رجل يملك شبحاً بتلك الضخامة.

***

في طريق العودة أزالوا العصابة عني وفكّوا الوثاق. كانا هادئين في جلستهما فلم يلتصقا بيّ او يضايقاني. وكنتُ كذلك؛ هادئاً ومنهكاً. بالكاد أفتح عينيّ. لم أجرؤ على التحدّث إليهما بحرف او حتى الإلتفات نحوهما رغم أنني كنتُ ألوك سؤالاً ملحاً.

وصلنا الزقاق ذاته. سحبني أحدهما من ذراعي وأنزلني من السيارة ليدفعني بعدها ويغادر. تهاويتُ على الأرض فوراً وأطلقتُ صرخة مبحوحة متقطعة بينما أخذتُ أتحسسُ بطني. زحفتُ نحو الرصيف مبتلعاً آلام الكدمات التي ملأتْ جسدي، وجلستُ عليه لبرهة. فجأةً لمحتُ المرأة ذاتها؛ يبدو وكأنها لم تبرح مكانها على طول الساعتين اللتين أختفيتُ فيهما. أيعقل أنّها كانت تنتظر عودتي أو خبر عني؟! شهقتْ متحسّرةً تغطي فمها بكفّها، تواصل التحديق بي مشفقةً. نهضتُ حينها أمشي بخطوات صغيرة متعثرة. لوحتُ لها، مبتسماً كالأبله، بيدي المتشنجة: "اطمئني يا سيدتي.. لم أكُن المطلوب".

تدارُك

شارفتْ الوردة على الذبول، فقد كنتُ أحملها في حقيبتي.. أنتَ تعلم لو أنّني حملتها بيدي فالأمر سيبدوغريباً بالنسبة للمارّة ومثيراً للشكّ.

جلستُ على مصطبةٍ خشبية مثبتة على الرصيف بمحاذاةِ حديقةٍ صغيرة، رائحة الثيل المبتلّ كانت تعبق المكان في هذا الصباح المبكر القارص. جلستُ أنتظر.. وأنتظر حتى تجمّدتْ أطرافي ولم أعُد أشعر بوجود أنفي أو وجنتيّ.

فكرتُ إنْ لم تأتِ، فهل ستموت الوردة في الظلام؟ لقد قطفتُها، أثناء مغادرتي المنزل، من شجرة بيت جيراننا المتدلية أغصانها على السياج؛ كنتُ قد استأذنتُ ابنتهم، فهي صديقة الطفولة التي عرّفني بها الشارع لا المدرسة. فقد حدث أن تخلّفتْ عن المدرسة قبل إلتحاقي بها بعام، نزولاً عند رغبة أخيها الاكبر الذي أعترض طريقها ذات صباح طالباً منها تغيير ملابسها ونسيان أمر المدرسة بالمرة. "ألا ترين بأنّ جسدها قد أخذ يكبر ويمتلئ" أجاب والدته مبرراً حين سألتْه بهدوء عن السبب. لذلك لم يتسنَ لي رؤيتها سوى سويعات نقضّيها مساءً عند عتبة باب بيتهم. طلبتْ مني اليوم أن آخذ ما أشاء من شجرتهم ولكني

اكتفيتُ بواحدة. قضّيتُ دقائق عدة وأنا أحاول انتقاءها لتليق بك؛ فأنتَ تحبّ الورد كثيراً ولكنك لا تملك حديقة في منزلك الصغير.. ولم يفكر أحد، طيلة سنينك الثلاثين، أن يُهديك واحدة.

يبدو أنّك لن تأت اليوم. ربما أنت مشغول الآن أو.. أنّك نسيت موعدنا ببساطة؛ ولكن ماذا بشأن الوردة؟

التفتُّ يساراً؛ نحو بائعٍ متجولٍ قرب عربته المركونة على الرصيف. بدا لي في الخمسين من عمره او أكثر بقليل. تعِبُ الملامح ذو سحنة سمراء. يلف رأسه بكوفيةٍ حمراء؛ فلا أكاد أرى سوى لحيته الكثّة وشاربيه وعينيه الجاحظتين. كان ينحني منهمكاً في موازنة النار تحت قِدر الذُرة المسلوقة. يعمل على مسح سطح العربة الأملس والنظيف لدرجة اللمعان. تركتُ مكاني حينها واقتربتُ منه بخطىً مرتبكة.

" أهلاً أبنتي". قالها بصوته الأجش. أومأتُ برأسي أصطنع ابتسامة. سألني وهو يرفع غطاء القِدر: "قطعة واحدة؟". هززتُ رأسي قائلة: "نعم. واحدة".

ناولني إياها بعد أن لفّها بصحيفة كانت مطوية بعناية على حافة العربة؛ بدتْ أنّها نسخة جديدة بتاريخ اليوم ولم تُقرأ بعد. أخذتُها وأنا أتطلع إلى أحرف الخبر الذي أمامي؛ لعلني أقرأ فيه مصادفةً، رسالة تخصّني.

فتحتُ حقيبتي لأُستخرج محفظة النقود. كانت الوردة أول شيء أتحسّسه وألمحه. أخرجتُها بدوري وقدمتُها إلى الرجل فوراً. حدّق بي للحظات مستغرباً؛ ثم سرعان ما مدّ يده مبتسماً ببعض الخجل. لم يأخذ مني مالاً رغم إلحاحي.

تركتُه وأنا أضمّ الذُرة الساخنة بين كفيّ المتجمدتين؛ عندها فقط أحسستُ بالدفء، وبشيء من الرضا بعد أن شاهدتُه يشمّ وردتي مغتبطاً. ربما سيأخذها إلي بيته ويقدّمها لزوجته، ابنته أو لأمه المسنّة.. وإن كان وحيداً يحتفظ بها داخل كتاب يحبّ مطالعته أو حتى سجل ديونه. لا أدري ولكنني أعلم أنّ تلك الوردة لم تُقطف هباءً هذا الصباح.

اللحن المفقود

كلما هممتُ للعبِ مع أقراني في الساحة الترابية المقابلة للنهر الذي يقطع منطقتنا ويشقها إلى قسمين، تراءى لي ذلك الشاب الذي يقف عند الجهة الاخرى من شاطئ النهر. بقميصه الابيض، يحمل بيده المسدلة عند ساقه اليمنى آلة كمان.

قررتُ ، ذات مرة، أن أرنو إليه وأراقبه.. أقتربتُ من النهر أرسل نظراتي إليه عبر تلك الأمتار الفاصلة بيننا. تمنيتُ لو أنّه كان بإمكاني الذهاب إلى الجهة الأخرى ورؤيته عن كثب وربما التحدّث إليه؛ لكن أمي كانت قد منعتني وحذرتني من التفكير في مغادرة هذه الساحة المسوّرة.

"هو لا يستطيع العزف على آلته. فالكمان يحتاج إلى قوسٍ يضرب به على أوتاره، وهو لا يحمل شيئاً في يده الأخرى" ذلك ما يتردّد في ذهني كلما رأيته. إنّه دائماً ما يكتفي بالرنو إلى جهتنا؛ إليّ أنا على وجه التحديد. أتمنى لو كان بمقدوري سؤاله عمّا به أو يريده مني. أعترفُ أنّ وجوده هناك يُشغلني على الدوام ويزعجني أيضاً، فأنا أصرف وقتاً كبيراً في مراقبته والتفكير بأمره ولا أنتبه إلا وقد تفرّق رفاقي وأنهوا اللعبة دوني.

ازداد الأمر سوءاً في الأشهر التالية. تفكيري به لم يعُد يقتصر على الساعات التي أراهُ فيها أغلب الأمسية، بل ظلّ يلازمني حتى فراشي ليلاً ومقعدي الدراسي نهاراً. رغبتُ كثيراً في أن أخبر أمي لعلها تساعدني وتجيبني عن أسئلتي إزاء ذلك الشاب الغريب؛ ولكنني كنتُ متيقناً بأنّها ستحرمني من الخروج إلى الساحة إن عرفتْ بأمره المثير للشكّ والحيرة.

***

لم أتخيّل يوماً أنني سأقفُ في الجهة الأخرى من النهر كما أفعل الآن. أقفُ على البلاطة التي وقف عليها ذلك الغريب يوماً قبل بضع سنوات.. أتأملُ صغاراً يلعبون في الساحة المحاذية للجهة المقابلة وأبحثُ فيهم عن طفلٍ يُمسك بقوسٍ لآلتي الخرساء. ألمحهُ فجأة. أحدق إليه عميقاً وأبتسم. ألوّحُ له بيدي أرتجي مجيئه إليّ. يكتفي بالتفاتةٍ صغيرةٍ نحوي. يرنو إليّ للحظات مستغرباً ثم يُعطيني ظهره مواصلاً اللعب مع أقرانه. يلوّح بعصاه راكضاً على شكلِ دائرةٍ مغلقة.

كومة ندم

بعد شهرين كاملين، قررتْ دخول غرفتهُ الصغيرة، التي منعتْ الجميع من دخولها. كان الوقت صباحاً. أتجهتْ نحو النافذة وأسدلت ستائرها جانباً فنفذتْ أشعة الشمس القوية مستقرةً على السرير الخالي.

أقتربتْ من منضدة السرير. تحسّستْ، بأناملها، غباراً غافياً على السطح. "سأقوم بتنظيفها مساءً" قالتها وهي تهزّ رأسها مؤكّدة.

جالتْ ببصرها بطيئاً في زوايا المكان. لمحتْ علبة كارتونية كبيرة فوق الخزانة. تهللت أساريرها لدى رؤيتها إيّاها. دنت من الخزانة، تناولت العلبة بحذرٍ شديد. حملتْها بحرصٍ أشدّ إلى السرير، وجلست هناك. أخرجت ما تحتويه العلبة لتصّفها أمامها بشكلٍ متناسق؛ السيارتان إحداهما لصق الأخرى، الغوريلا قرب الشجرة، الرجل الخارق على مركبته... وكذلك فعلتْ مع بقية الشخصيات وأدواتهم الخاصة.

أرختْ عيناها . ثم أخذت تتأمل المكان برعبٍ شديد كأنّها تراه للمرة الأولى. قفزت من عينها دمعة. نهضت تحدق إلى السرير وما عليه، حملت العلبة ورمت بما تبقى منها. تكوّمت

الألعاب كما التلّ. جثت على ركبتيها أرضاً وبعثرتها بذراعيها باكية. ها هي الفوضى التي كانت تغضبُ عند رؤيتها كلما دخلتْ عليه الغرفة ووجدتهُ قد أحدثها؛ لكنها لم تعُد غاضبة بعد اليوم. كانت حزينةً نادمة، تدعو روحه الملائكية لمشاركتها اللعب.

المشهد الأخير

حول جنازة الأم، التي توسطتْ ردهة المنزل، كانوا مجتمعين؛ أبناؤها وبناتها وأحفادها الصغار، وبعض اقربائها وجيرانها الذين تسمّروا عند الباب مطأطئي رؤوسهم حزناً. جميعهم مُشرعٌ في البكاء والعويل؛ إلّا هي. تلك الابنة التي لازمتْها حتى آخر نفس لفظتْه تلك الأم الميتة. لم تكُن تصرخ ولا تبكي حتى.. بل كانت تحدّق بكلِّ وجهٍ من وجوه العائلة مُستفهمة عن مدى صدق فعلهم هذا من عدمه.

انزعجتْ فجأة واحتقن الدم في وجهها، فصراخ أخيها يكاد يُذهب بسمعها وفؤادها؛ صراخٌ هستيري انتابه وهو يحتضن جثمان أمّه ويهزّه كأنما يتوسل إليه ليستفيق. عادتْ بذاكرتها إلى ماضٍ قريب، إلى ما يقلّ عن ثلاثة أشهر..

***

كانت قد غادرت غرفة أمها مساءً، بعد أن سمعت أصوات طرْق على باب الردهة الخشبيّ. أسرعت لفتحه. لا بدّ أنّه أحدٌ من العائلة؛ بهذا فكرتْ وهي تعمل على فتحه.

- اهلاً صادق.

قالتها مبتهجةً. ردّ التحية بهدوء وهو يدخل.

- كيف حال امي اليوم؟

سأل وهو يجول في المكان كأنّه جاء باحثاً عن شيء فقده هنا في الأمس. أردف يقول بينما حنتْ أخته رأسها: لا جديد. الوضع ذاته، أليس كذلك؟

هزّت رأسها إشارةً لكلمة "نعم" التي منعتْها الغصّة من نُطقها أمامه. همّ بالمغادرة بعدها وهو يوصيها بإبلاغ سلامه وقبلاته لأمه. أستوقفتْه قائلة:

- ألن تدخل الغرفة لتراها؟
- أخشى أن تستيقظ بسببي..
- لا مشكلة. فهي تفرح بمجيء أحدكم.
- أنا مستعجل الآن. سآتي بعائلتي غداً أو بعد غد.

تصنّعتْ ابتسامة مجاراةً لوعوده المعهودة وزيارته المستعجلة.

***

ها هي الآن تراه وتسمعه ينحبُ عند جثمان أمهما. ترنو إليه بسخطٍ وامتعاضٍ كبيرين. لم يفِ بأيّ من وعوده؛ بل أكتفى بتكرار زياراته السريعة بمفرده. لكن.. لمَ هو يصرخ الآن بهذا الكمّ الهائل من الفقد وماذا يا ترى قد فقد؟ أيعقل أنّه نادم؟! هل له

أن يتغيّر بمجرد رحيل أمّه المريضة، التي أجمع أغلب الحاضرين الآن على نيلها الراحة الأبدية؟

فكرتْ وهي تنأى بناظريها عنه وعنهم جميعاً. غادرتْ المكان تقول بصوتٍ مسموع: "لم أعلم قبل اليوم أنّ صادقاً يُتقن التمثيل لهذا الحدّ".

هروبٌ ناقص❖

مُمسكٌ بالمقود. شاخصٌ بصره إلى الأمام. شاقٌّ الطريق الوعرة بأقصى ما يتحمّله محرّك شاحنته من سرعة.

اهتزتْ السيارة بهم أكثر من مرة. لمحَ شيئاً يقفز من صندوقها. نظر إلى الخلف عبر المرآة الأمامية؛ شاهد صغيرةً تتكوّر على الطريق. فكر للحظة؛ هل يتوقف؟ أيجب عليه العودة فيضحّي بعشرين فرداً، من أجل طفلٍ واحد وإن كان ابنته؟

ظهر شبح المركبة العسكرية التي كانت تطاردهم منذ مغادرتهم القرية، يعلوها أربعة أشخاص متشحين بالسواد يرفعون أسلحتهم ويصوّبونها نحو الأمام وإلى الجانبين. تقتربُ المركبة من ابنته شيئاً فشيئاً فيما واصلَ طريقه بصمتٍ موجع محاولاً تجاوز ما جرى تواً.. وربما إنكاره.

وصل فيما بعد، باخوته وعائلاتهم، المخيّم المقام في أطراف المدينة. أخذ الجميع يُنزل أطفاله وأمتعته القليلة؛ إلّا هو فقد وقف قرب باب السيارة ساهماً. دنتْ منه زوجته التي كانت تجلس بجانبه في الداخل. سألتْه بعد أن مسحتْ بعينيها الوجوه:

- أين يوڤا؟
- اختفت..

- كيف يعني اختفت؟!

صاحتْ مستفهمة وهي تُمعن النظر في عينيه عميقاً. أشاح ببصره عنها شاعراً بالأسى والخجل. تابعتْ تحديقها إليه تنتظر سماع ما يُخفيه عنها.

أمسك ذراعها وأخذها جانباً. أطرق للحظات حيراناً يستجمع قواه. تنهدّ ليشرع بعدها بقصّ ما حصل متغاضياً عن نظراتها المنذهلة. حاولتْ أن تفتح فمها لتحتجّ.. لتلُمه.. لتضربه على صدره لتفريطه بابنتهما؛ لكنها لم تفعل. أمالتْ برأسها نحو كتفها الأيمن بدماءٍ متجمدة داخل عروق جسدها المنهك والدموع تتزاحم في عينيها الغائرتين، لكنها تأبى السقوط والاعتراف بالحقيقة.

تناهى إليها صوته الحزين المنكسر:

- لا تخبري أحداً بما حصل..

رنتْ إليه بحيّرةٍ لبضعة ثوانٍ ثم أومأتْ برأسها موافقة. تقافزتْ دموعه حينها. وضع كفّه على فمه علّه يُسكت بكاءه ويُخفي انكساره. ألتفتَ إلى يساره بأسىً؛ حيث الطريق التي جاؤوا

عبرها. تساءل بفزع عمّا يمكن أن يحصل للصغيرة الآن؛ ليس لديه أدنى فكرة عما يمكن أن يحدث هناك.

نهاية نهار ذلك اليوم البائس والمحيّر وقبيل غروب الشمس. أدرك، فيما كان يجلس وحيداً، بأنّه سيظلّ متهرّباً على الدوام من نظرات زوجته ونظراتهُ هو؛ التي كلما تطلّع بالمرآة صوّبها وراءه.

---

*مقتبس عن قصة حقيقية.

هبة العابر

كلما دقّتْ الساعة العاشرة مساءً، أطفأتْ الأنوار. شغلّتْ الأغنية عبر الحاسب المحمول المتروك على المكتب، لتدنو بعدها من النافذة. تقف هناك تراقب اللا شيء الذي من المفترض تواجده في الأسفل..

***

لا زالتْ تذكر المرة الأولى كأنها البارحة؛ كانت تجلس خلف مكتبها في تلك الليلة الباردة من شباط. منهمكة في كتابة بحث وجب عليها تسليمه يوم غد، حين تناهى إلى سمعها صوت أغنية. حاولتْ أن تتجاهلها أول الأمر، فلم تُرهف السمع لها أبداً.

التفتتْ يميناً حيث الساعة الجدارية؛ ألفتْها العاشرة والربع. أطرقت تنصتُ رغماً عنها.. تركتْ المكتب فجأة متجهةً، بفضول، نحو الشبّاك. فتحت النافذة، أزاحت الستار قليلاً وأخذت تتطلع نحو الأسفل علّها تعرف مصدر ذلك الصوت. لكنها لم ترَ شيئا لعدم كفاية الإضاءة في تلك الرقعة االمظلمة خلف منزلهم.

في ليلة ثانية ليست ببعيدة عن تلك الليلة، وبينما كانت مستلقية على السرير سمعتْ الأغنية ذاتها. أبتسمت للوهلة الأولى فالصوت أعلى هذه المرة وسيمكنها من الإستماع إلى الكلمات بوضوح. أختفت إبتسامتها بعد لحظات؛ فالكلمات حزينة جداً. هي لا تحبّ الإستماع إلى الاغاني الحزينة، لطالما أيقنت أنّها تعقّد الأمور اكثر وتُغرق البشر في بئرٍ عميقةٍ موحشة بتذكيرهم بكلّ ما كانوا يعتقدون بنسيانه. تساءلتْ عمّا يعانيه صاحب هذه الأغنية ويشكو منه.

لم تهنأ بنومها تلك الليلة وحين أستيقظتْ صباحاً أحسّت بثقلٍ كبير في جسدها وألمٍ طفيف في رأسها. تذكرتْ الأغنية وهي تغادر فراشها، فلعنتْ صاحبها.

في ليلةٍ ثالثة.. حملتْ كرسياً إلى النافذة حال سماعها الأغنية. جلست مغمضة العينين وبدأت رحلتها في السفر معه. شعورٌ غريب راودها حينذاك، لا تعلم إن كان مجرد فضول هذه المرة أو أكثر منه بقليل. نهضت بعدها وحدقت إلى الأسفل مبتهجة؛ يجب عليها أن ترى صاحب الأغنية هذه المرة.

في ليلة أخرى. جلستْ قرب النافذة تنتظر مجيئه؛ الساعة تشير إلى الحادية عشر ولم يظهر بعد. لقد تأخر!

ما رأتْه منه في المرة السابقة لم يُرض فضولها تماماً؛ رأت طيفه ليس إلا. شاب نحيل منكفئ على نفسه. وقد بدا لها بأنّه يضمّ ذراعيه إلى صدره بينما يحرّك بجذعه إلى الأمام والخلف بحركاتٍ متساويةٍ متكررة. بقي على هذه الحال لأكثر من عشرين دقيقة. أنقطع الصوت فجأة لينهض بعدها ثم يغادر؛ بدا لها آنذاك متوسط الطول.

***

اسدلتْ الستار. عادت إلى السرير بخطىً مثقلة بالخيبة والقلق. استلقت في فراشها ممتعضة تلعن الحزن الذي أهداهُ لها ذاك العابر الغريب. دفنتْ رأسها تحت الغطاء وأغمضت عيناها بشدة علّها تطرد أفكاراً سيئة بشأنه.

منفذ على الماضي

ممدّدٌ في فراشي. مغمض العينين. أشعرُ بظلمة المكان حولي وهدوئه. ازعجني صرير الباب فجأة. هنالك مَن دخل. يبدو أنّه يقف متردداً هناك.

انتفضتُ على إثر صوت ضغطة زرّ مفتاح الكهرباء والضوء النافذ عبر جفنيّ المطبقين. إنّه يقترب من السرير. أريد أن افتحُ عينيّ وانظر إليه لأعرف من يكون؛ ولكنني عاجز تماماً. أيعقل أنّني ميت؟

كفٌ دافئة وُضعتْ على يدي. إنّه يحملها عن صدري ويأخذها إلى صدره، لأسمع بعدها صوتاً لا أُخطئ في معرفته أبداً:

- كيف حالك اليوم؟

يا الهي إنّها سمية؛ زوجتي. أردتُ أن أجيبها ولكني لم أستطع. أحاول تحريك أصابع كفيّ التي تضمّها بيديّها فأبوء بالفشل.

- أنتَ تسمعني. أليس كذلك؟

"بلى. أسمعك بوضوح لم أعهده من قبل. واصلي الكلام يا سمية.. تحدثي. اخبريني أنّني لا زلتُ حيّاً". لكنها اختارتْ

الصمت ولم أعد أسمع سوى صوت أنفاسها المضطربة التي تلفحُ يدي.

ما هي إلا دقائق حتى ضجّتْ الغرفة باصواتِ رجالٍ وخطاهم؛ يبدو كُثر الذين وصلوا الآن. فهمتُ من غمغماتهم أنّني محور حديثهم، فأحدهم يسأل والآخر يجيب. يمكنني أن أخمّن بأنّهم يهزّون رؤوسهم مُشفقين على ما وصلتْ إليه حالي.

أزداد عددهم فيما بعد؛ أصوات بعض النسوة خالطتْ أصواتهم.. أستطيع تمييز صوت قريبة أبي؛ لطالما كانت تزورنا ممتلكةً ذلك الصوت المميّز، والذي كنا، أخوتي وأنا، نقلّده في أيام مراهقتنا. هناك صوت محشرج خفيض لامرأة تغالب دموعها... لم يكن بمقدوري تمييز صاحبتْه على الفور؛ لكني أيقنتُ بعد لأي أنّها أمي. صارتْ تبكي فجأة وأخذ نشيجها يعلو شيئاً فشيئاً.

- ألم تسأمي البكاء يا امرأة..

قالت إحداهن ثم استطردتْ: كفّي عن ذلك وادعِ له بالشفاء.

- أنظري إلى حاله.. لقد طالتْ رقدته!

تركتْ زوجتي كفي وابتعدتْ. يبدو أنّها ذهبت قرب أمي تواسيها؛ مَن تواسي مَن؟!

إنّ أصواتهم تُزعجني، تنقر في رأسي. أريدُ أن أتكلّم، أصرخ، فأطردهم جميعاً من هنا. "لستُ بميت؛ فلمَ تبكون عليّ؟! اتوسّل إليكم أن تكفّوا فبكاؤكم يُرهقني، يُفجعني ويكاد أن يُصيبني بالجنون".

أحسستُ بدفء أصابع صغيرة تحطّ على جبيني فجأة، تتحرك بشكلٍ دائري على الخطوط التي عقدتُها بين حاجبيّ. لم أعد أسمع شيئاً من أحاديثهم.. بدأتْ أصواتهم بالخفوت أما أنا فكنتُ أنسحبُ، أطيرُ.. فابتعد إلى مكان آخر؛ إلى أرضٍ خضراء أشبه بحديقةٍ لمكانٍ كنتُ أعرفه من قبل... سرتُ عليها لأشاهد أصدقاء العمر مفترشين العشب تحت ظلال صفّ من أشجار السدر، بزيّهم الأبيض والرمادي؛ تماماً كما تركتهم قبل ستة عشر عاماً. إنّهم يبتسمون لي ويحيّونني بتصفيقٍ حار وأصوات مبتهجة: "ها قد عاد الناسي". هرولتُ نحوهم ملهوفاً، وصوتاً دافئاً ينساب قريباً من أذني: "أمي.. جدتي. أبي يبتسم".

الخطّة المؤجلة

(نص قصصي)

بعد انقضاء يومٍ متعب، أجمعُ بناتي الثلاث مساءً، فندخل الغرفة لننام؛ دائماً ما يفضلن مشاركتي بها رغم محاولاتي المتكررة في تعويدهن على النوم في غرفةٍ أخرى.

يجتمعن حولي في السرير. تطلبُ الأولى منهن أن أقصّ لها حكاية جديدة لا تشبه التي قصصتُها في ليلة الأمس. لن تغفو الثانية قبل أن تسمع أغنيتها المفضلة مني.

أما الصغيرة المدلّلة، والتي لا تنام إلا في ساعةٍ متاخرةٍ جداً. تهمسُ في أذني. تطلب مني أن أقتلها خنقاً بالوسادة. أضمّها إلى صدري مطمئِنة. أقول جملتي المعهودة والمستهلكة أكثر مما ينبغي: "أعدكِ بأنني سأفعل ذلك ليلة غد".

يومٌ واحد

أصحو في الساعة الحادية عشر صباحاً، فليس لديّ ما أقوم به من شؤون منزلية. أطلبُ من أختي أن تعدّ لي الفطور بسرعة، فيومي حافل ولا أريد تضييع ما بقي لي من وقت.

أجلسُ في الغرفة أنتظر. أدنو من الشبّاك وأفتح النافذة على مصراعيها. أطلُّ برأسي خارجاً متأملاً السماء وكلّ ما أودّ رؤيته. أبتسم ساخراً حين ألمحُ شاشة التلفزيون ورائي؛ لن أشغّله، لقد سئمتُ من متابعة المسلسلات المملّة والبرامج المكررة.

لن أرتّب سريري قبل المغادرة، وسأتركُ أبواب خزانتي مفتوحة؛ ليس لأنني مهملٌ، بل لأنسى شعور المسؤولية ذاك وأجرّب شعوراً جديداً لم أعهده. أرتدي قميصاً ذا أكمام قصيرة وبنطالاً "جينز" مع حذاء رياضيّ؛ فالمغامرات، بلا شكّ، تنتظرني.

دونما شكّ، أقابل أبي عند الباب أثناء خروجي راكضاً. وبالطبع أنّه سيطلب مني التمهل بمشيتي، أستجيب لطلبه مبتسماً، أو ربما أعانقه بقوة وأشدّه إليّ حتى أشعر بثقله كلّه على صدري؛ سأكون حينذاك قد حملتُه للمرة الأولى في حياتي.

***

أخرجُ إلى الشارع بعدها. أمرُّ على مجموعةِ شبابٍ مزعجين،

وكعادتهم دوماً، يتسلّون بمراقبتهم للناس. يهزؤون بعجوز ويتغزّلون بامرأة ويضربون طفلاً؛ يتحلّون بخفة دم كما يدّعون. بيني وبين أحدهم ثأر قديم لم يتسنَ لي أخذه؛ أما اليوم فأعتقد أنّه الوقت المناسب تماماً. أقتربُ منه وأرمقه بنظرة غاضبة محيّرة، نظرة مرعبة من رجلٍ لا يخاف أحداً، أو أضربه بقبضةِ يدي ضربات عدّة في بطنه لأتركه يتأوه من فرط الألم. أعلمُ أنّه سيتوعدني، ولكنه لن يراني بعد اليوم.

أقفُ في الشارع مغتبطاً. أعبرُ مهرولاً بين السيارات، لستُ مضطراً لإنتظار سائق يعطف عليّ فيفتح لي الطريق. أرى الرجل المسن الذي كنتُ ألتقيه وأكتفي بمراقبته من بعيد؛ طالما كانت مساعدته أمنيتي. أتجه نحوه وأمسك بكفّه الخشنة الدافئة التي تذكّرني بكفّ جدّي. أعينه على صعود الرصيف؛ فتلك مشكلته المستعصية. سيغمرني حينها شعور رائع لا يوصف وأنا أسمعه بنبرته الضعيفة، يشكرني ويدعو لي بالخير.

أواصلُ مسيري حتى ألمحُ ذلك الشاب، الذي كان مجهولاً بالنسبة لي، وطالما كنتُ أودّ التعرف عليه والتحدث معه. أنتهزُ الفرصة وأمشي نحوه دونما تردد. أسلّم عليه وأسأله عن اسمه الذي

كان يُشغلني. أتحدث معه طويلاً وأستمع إليه لفترة أطول، فأحفرُ كلّ عبارة ينطقها، عميقاً في لبّ عقلي، فهذا أول حديثٍ بيننا وربما الأخير. سيعبّر عن سعادته بالتعرّف عليّ ويعدني بلقاءٍ ثانٍ ثم يُكمل طريقه حيث يعمل.

أتابعُ طريقي مبتهجاً، منفرداً بتلك الراحة عن جميع الموجودين. أشاهدُ صديقتي فجأة، وهي منزعجة كعادتها، وسط زحام المركبات وتدافع الناس. تقف جانباً ممتعضة وهي تحدق بساعة معصمها كلّ حين. أتجهُ نحوها وأقفُ على مقربةٍ منها ثم أطلب من بعضهم السماح لها بالمرور فيُفتح لها الطريق. تمضي في سبيلها بابتسامة خجلى تنمّ عن رضا وامتنان كبيرين.

أقصدُ المقهى بعدئذ. هنالك أحتسي قهوتي على مهلٍ وأنا أراقب الوافدين إليها باهتمام. فأنصتُ جيداً لكلّ احاديثهم الشائقة. يشدّني حديث رجلين، بلا شكّ، عن السياسة وأوضاع البلد؛ فيشتمان هذا ويثنيان على ذاك ثم يحتدمان في النقاش. سأتدخّل بينهما لأحل العقدة التي سيتقاتلان من اجلها. أجالسهما وأهدئ من روعهما ثم أخبرهما برأي ثالث؛ ربما لا يأخذانه على محمل الجدّ ولكنهما سيندهشان به لا محالة.

أعرّج على محل تأجير الدراجات النارية، بعد مغادرتي المقهى. لطالما تمنيتُ قيادتها. سأستأجرُ واحدة وأنطلق بها في طرق فرعية لا يمرّ بها الكثيرين؛ فهذه تجربتي الأولى وأخشى إفسادها. سأقودها فرِحاً مخلّفاً همومي تتطاير مع دخانها الأسود المنتشر ورائي.

***

بذلك فكرتْ وهي تضع رأسها على الوسادة وتتطلع إلى النجوم في السماء عبر النافذة المواربة. فترتْ عن شفتيها ابتسامة فيما أخذتْ تتخيّل عودتها مساءً إلى المنزل، في ساعةٍ متأخرة. سيكون يومها ذاك قد شارف على الإنتهاء.

خطابُ الرئيس

واقفٌ على خشبة المسرح. فيما جميع الحاضرين يصفقون لي ويهتفون. ساورني الشكّ آنذاك وراودني الخوف قليلاً. رجعتُ خطوتين إلى الخلف. لمحتُ الاستغراب والتساؤل في وجوههم... ساءلتُ نفسي حينها: "من جاء بيّ إلى هنا؟ وما الذي يجب عليّ أن افعله الآن؟!". حرتُ طويلاً وازدادتْ أسئلتي ثم صرتُ أتلفّت يميناً ويساراً حتى شاهدتُ صديقي يقف عند ستار المسرح مبتسماً. نظرتُ إليه شاكياً ورطتي، أجابني مواصلاً تبسّمه قائلاً: "تقدم... قل ما عندك".

غادر بعدها ليتركني في حيرتي. ناديتُ باسمه لكنه لم يسمعني أو أنّه لم يشأ الإستماع لندائي؛ كيف له أن يتركني هكذا ويرحل؟! رمقتهُ بغضب وامتعاض شديدين: "سأفلحُ دونك وستندم على فعلتك هذه".

صمتُّ لبرهة أستجمع قواي وأسترجع أفكاري؛ طالما كان لديّ الكثير منها ما يهرول في رأسي، فتُبعد ضجّتها النوم عن عينيّ.. "يا أفكاري المتعبة أين أنتِ؟! ها هم جميعا ينتظرون سماعك".

نظرتُ مرةً أخرى صوب الجهة التي غادر عبرها صديقي، عاتبته بنظراتي التي تغاضى عنها. عدتُ إلى مكاني وعدّلت وقفتي. أرخيتُ جفنيّ واستللتُ نفساً عميقاً. رفعتُ رأسي. وقبل أن أنطقُ بحرفٍ واحدٍ من أحرفي الكثيرة، ذهلت.. لم أجد أحداً هناك. يبدو أنّهم رحلوا في اللحظة ذاتها التي غادر فيها صديقي؛ أيعقل أنّهم سئموا الإنتظار بينما كنتُ أفكر قليلاً؟

عمّ المسرح الهدوء. وقفتُ حزيناً أطأطئ رأسي شاعراً بالأسى. أطبقتُ جفنيّ خجلاً؛ ولكني... لا أزال أسمع أصوات تصفيق؛ عجباً. مَن يفعل ذلك الآن؟!

فتحتُ عينيّ، وكان سقف الغرفة أول شيء ألمحه... أدركتُ، بعد لحظات، أنّني في الفراش. تبيّن لي، فيما بعد، أنّي قد نسيتُ التلفاز مشغّلا؛ حيث كانت الجماهير تصفق، فرحاً، بعد أن انهى الرئيس خطابه الطويل.

المقبرة

مُنذ دخولنا المكان وأنا أحدّقُ بملامحها جميعاً إلا عينيها التي أغضّ الطرف عنهما، كلما تلاقتْ نظراتنا. كنتُ قد دعوتها للعشاء خارجاً في تلك الليلة. سألتْني فور وصولنا عمّا إذا كنتُ أعاني من مشكلة، ابتسمتُ في وجهها أدرأ عن نفسي صدْق حدْسها.

تناولنا وجبتنا بصمتٍ مطبقٍ مني، وببعضِ عباراتٍ مرحة وتساؤلات متكررة منها. حاولتُ التصرّف على سجيتي أمامها، التحدّث إليها بكثرة كسابق عهدي؛ لكنني كنتُ أفشل عند كلّ محاولة، رغم تزاحم الكلمات خلف شفتي. لم أعرف كيف أرتّبها بالشكل الذي لا يجعلها تسيء فهمي.

رفعتْ حاجبيها ترنو إليّ فيما كانت ترتشف عصير الليمون الذي تطلبه دوماً. أدركتُ لحظتها أنّ لا مفرّ لي بعد تلك النظرة الحذقة. قالت مبتسمة تفتعل دور المعالِجة النفسية معي كما تفعل دوماً:

ـ هيا اخبرني. ما مشكلتك؟

كدتُ أتراجع عن قراري الذي أتخذته صباح اليوم وأنسى الموضوع برمته فأغلقه إلى الأبد؛ لكني فكرتُ حينها بأنني لو

فعلت هذا فسأظلّ متلعثماً طوال حياتي معها وسأندم، فيما بعد، على سكوتي هذا بكلّ تأكيد.

اردفتْ تقول بحماس وهي تشبك كفيّها على الطاولة:

– هيا تكلّم.. أسمعك.

– أنتِ تعلمين يا حبيبتي أنّ..

أطرقتُ للحظات ثم صوبتُ نظراتي إلى عينيها متكلّفا الابتسامة.

– سبق وأن تحدثنا في الموضوع ذاته.. ولكننا نسيناه وأنشغلنا بالخطوبة وتفاصيلها..

تغيّرتْ ملامحها فجأة. سألتْ بقلق: أيّ موضوع تقصد؟

ولأنني أدركتُ بأنّ شكّها في محلّه، قلتُ فوراً:

– في الأمس عُرضت عليّ فرصة العمر التي طالما حلمتُ بها..

أمسكتُ بكفّيها مبتسماً وربما راجياً. أردفتُ:

– يجب علينا ألّا نفوتها هذه المرة.

– فرصة العمر؟ تعني أن نهاجر؟!

– نعم. في الأمس اتصل بيّ صديـ...

سكتُّ حانقاً بعد أن أطلقتْ ابتسامة هازئة فيما سحبتْ كفيّها وأشاحتْ ببصرها عني. أمتعضتُ لفعلها هذا وقلتُ غاضباً: كنتُ أتوقع الأمر سهلاً بما أنّكِ معي.

– كيف سهلاً وأنت تعرف رأيي بهذا الأمر؟

– وكذلك أنتِ تعرفين رأيي..!

– أعتقدتُ أنّك تخلّصتَ من تلك الفكرة كما تخلصتَ من فكرتك الأثيرة؛ الزواج مقبرة الحبّ.

– لا. لم يحدث ذلك. أخبرتك أننا انشغلنا ولكنني لم أكفّ عن التفكير بها.

– إذن.. أنتَ تخبرني بقرارك الآن.

– كلا. ليس بعد، نحن نتشاور فحسب.

– ها قد سمعتَ رأيي إذاً.

قالتها بهدوء مفتعل رغم إضطراب هيأتها. أجبتُها وأنا أزمّ شفتيّ دهشةً: وأين ذهبتْ لغة الحوار بيننا؟!

تناولتْ حقيبتها من الكرسي المحاذي لكرسيّها وقالت وهي تتحاشى النظر إلي: جئتَ بي إلى هنا لتخبرني بقرارك وحسب؛ فعن أيّ حوار تتحدث؟!

***

جلسنا على مقعد حديدي في الحديقة العامة المجاورة للمطعم، بعد مغادرتنا منه. فضلتُ السكوت علّها هي مَن تبدأ هذه المرة.

جاءني صوتها هادئاً ومتردداً: تعلم جيداً أنني معك.. وأريد أن اقفُ بجانبك إلى الأبد وأساعدك في القيام بكلّ ما تحلم به وتسعى إليه.. لكن هنا وليس في مكان آخر.

– وهل يعود المكان مهماً إن كنا معاً؟

– بالنسبة لي نعم. مهم جداً.

التفتتْ إلى الجهة المعاكسة كأنها تبحث عن شيء فعادتْ به إليّ بعد أن أعتدلتْ في جلستها حتى واجهتني تماماً.

– كنتُ أعتقد بأنني سأكتفي بك عن العالم كلّه.. لقد أخطأتُ. لقد جعلتني أحبُّ العالم كلّه وأهتم به. لم تُشعرني يوماً أنني ملكك وحدك، فكيف تريد مني الآن أن أتخلى عن كلّ الأمور التي بدأتُ أستشعر جمالها الآن وكأنني أراها للمرة الأولى... تأكد بأنني سأكون في يوم ما ودائماً، بحاجة إلى أهلي، أصدقائي.. إلى بيتنا وأماكن لا أستطيع مفارقتها.

– أغلب النساء تضطر إلى الإستغناء عن هذه الأمور بعد زواجها.

– الإبتعاد عنها قليلاً وليس الإستغناء.. تخيّل أننا تشاجرنا يوماً واحتجنا للإبتعاد عن بعضنا لفترةٍ ما...

– بحق الأنبياء.. ما هذا الذي تقولينه؟!

– صدقني. هذا يحصل دائماً؛ إنّه أمر طبيعي. سأكون حينها بحاجةٍ ماسّةٍ لزيارة أختي مثلاً.

– لا تخافي. لن تكوني وحيدة هناك. سنتعرّف على أصدقاء وجيران وسيكون لدينا أطفال ولن ينقصنا شيء.

– بلى. ينقص ينقص!

أشحتُ بوجهي عنها أطلق تنهيدة. سألتْني حينها: كلامي لا يعجبك؟

– أنت تشغلين نفسك بأمور صغيرة وتنسين الأهم! فكري يا عزيزتي في الحياة التي تنتظرنا هناك.. في طبيعة عيشنا، تربية أطفالنا.. في تحقيق كلّ أحلامنا وفتح مشاريعنا التي ستظلّ مجرد أفكار تراوح مكانها إن مكثنا هنا.

كانت تنصتْ إليّ بأسىً، تهيأ لي أنّها لانتْ أخيراً. أردفتُ أقول لها فيما أخذتُ وجهها ناحيتي: صدقيني أنّها ليست أنانية.. يجب على الجميع أن يشقّ طريقه بالشكل الذي يناسبه. أن يتخلى عن بعض ما يحبّه من أجل ما يريده بشدة ويطمح إليه.

– أعتذرُ منك إذاً.. لا أستطيع.

أعدتُ يدي إلى حجري وأخذتُ أعصرها خيبةً وأسىً.

– ولكنني لن أخيّب أملك. إنّه حلمك ويجب أن تسعى إليه..

التفتُّ إليها مُستفهماً. أردفتْ: يجب أن تسافر.

***

غادرتني بهدوء مبتسمة رغم إنحسار الدمع في عينيها. توسلتُ إليها لئلا تتركني فأنا لم أكن أخطط لشيء دونها؛ لكنها لم تصدقني. أخبرتُها بأنني لن أتحرك خطوةً إلا وهي معي. وإن كان سفري يفرقنا أتخلّى عنه، لكنها أكتفتْ بإبتسامة صغيرة فيما تطلّعتْ إليّ بهدوء ثم قالت: "يصعب عليّ، بعد اليوم، البقاء معك حتى وأن مكثتَ هنا. هل تُريد لبيتنا أن يُصبح مقبرةً لأحلامك".

أمّا بعد

"إنني لا اخاف من الموت، ولكنني لا أريد أن أموت..
لقد عشتُ سنوات قليلة قاسية، وتبدو لي فكرة أن لا أعوض فكرة رهيبة"

غسان كنفاني

قبل ساعتين من هذه اللحظة كنتُ قد أتممتُ عامي السابع والثلاثين. "يا للرعب؛ إنّني أقترب من الأربعين!". لم يُفاجئني أحدهم بكعكة عيد ميلادٍ على الطاولة او يذكرني ببطاقة تهنئة عند عتبة الباب؛ لكن ذلك غير مهم الآن ولن يغيّر من الأمر شيئاً، فأنا عازمٌ على الرحيل دون رجعة فلمَ قد ألتفتُ إلى أمور تافهة أعلم مسبقاً أنّها لن تحدث.

هيأتُ غرفتي للرحيل، فلستُ بحاجة لحقيبة سفر. أرتديتُ البدلة التي أحبّ. سرّحتُ شعري بطريقةٍ عصريةٍ طالما أعجبتني ولم أجرؤ على تجربتها. رششتُ عطري المفضل على جانبيّ رقبتي ورحتُ أتأملني بالمرآة. تساءلتُ بعدها إذا ما كنتُ سأغادر بهدوء

هكذا أم يجب عليّ أن أترك خبراً يستدلّون به عليّ على الأقل...؟

ألتفتُ نحو المنضدة حيث كتبي ودفاتري. أقتربتُ منها متردداً وجذبتُ الكرسي؛ "لا بأس بكتابة رسالة أخيرة أوضحُ فيها بعض الأمور".

تناولتُ ورقة وقلم حبر وأخذت أفكر بما ساكتبه.. "هل أعتذر عن فعلتي الشنيعة، كما سيرونها فيما بعد، أم ألقي باللوم عليهم فلا أترك لهم سبباً لتقريعي؟ لمَ لا أكتب ما عجزتُ عن البوح به أمامهم؛ ولكن.. هل بإمكانهم فهمي جيداً كما كنت أحاول دوماً وكانوا يعجزون؟! أوف. يبدو أنني أعود إلى الدوامة نفسها، ومثل كلّ مرة لن أغادرها بسهولة".

نهضت. أتجهتُ نحو النافذة بفكر مشوش ومزاج متعكر، أخذتُ أتلفت يميناً ويساراً أبحث عن علبة السجائر والولاعة؛ لا بدّ أنّ سيجارةً ستفي بالغرض.

فكرتُ بالعدول عن كتابة الرسالة. فمَن سيهتم بأمر ورقة خُطّ عليها بضعة عبارات منمقة. بكلّ الاحوال سينشغلون بجثتي المتعفنة ولن يلتفتوا لرسالة مطوية على أكوام الكتب تلك

والأوراق المبعثرة. سوف يلومونني على فعلتي دون شكّ أو يتهمونني بالجُبن والتهرّب بعد أن فقدتُ كلّ الاسباب التي تُرغمني على البقاء ههنا.

عدتُ أنظر إلى الورقة البيضاء؛ "لن أكتب حرفاً". لا يمكن لورقة واحدة أن تحوي ما بداخلي. وهم لن يصغوا لما سأقوله أساساً، سيكتفون بالصمت ثم يتجه كلّ واحد منهم إلى بيته فينصرف إلى حياته ليقضّي ما تبقى له من عمر. أما أنا.. فسأكون قد خسرتُ كلّ شيء، حتى وقفتي هذه وتفكيري المتشعب هذا الذي أعتاش عليه وآنسُ به.

حطّ طائر الدوري على سلك الكهرباء المقابل لشبّاك غرفتي. يتلفت هنا وهناك غير مستقرٍ على حال. يشدّ بمخالبه الضعيفة على السلك ويحرّك بجذعه كأنه يرغب بالتأرجح. راقبته مغتبطاً... ثم أنتبهتُ لنفسي. أخذتُ أتحسّس ثغري بأناملي. "يا الهي. إنني أبتسم مجدداً". في اللحظة التي طار فيها ذلك الطائر خطرتْ في بالي فكرة. تناولتُ حقيبة السفر من تحت السرير وبدأتُ بتجهيزها.

خمس دقائق أخرى

في الساعة الثانية ظهراً عاد إلى المنزل منهكاً. دخل صالة البيت فألفى الصغار مستلقين على ظهورهم أسفل شاشة التلفزيون. هرول أحدهم، لدى رؤيته إياه، إلى المطبخ مخاطباً أمه: "ماما.. ماما. جهزي لنا الغداء؛ ها قد وصل أبي".

ابتسم بوجه ابنه الذي لزم مكانه فيما نهضتْ ابنته الصغيرة ذات العامين وركضت نحوه فرِحة. لفتْ ذراعيها الصغيرتين حول ساقه اليمنى ورفعت برأسها تخاطبه بلغتها الخاصة المبهمة. انحنى عليها يقبّلها ليطلب منها بعدئذ أن تعود لمشاهدة مسلسلها الكارتوني.

دخل الغرفة. شغّل جهاز التكييف وأخذ يفتح أزرار قميصه. رنّ هاتفه المحمول منبهاً بوصول إشعارٍ من الفيسبوك. أخرج الهاتف من جيبه على الفور وأخذ يتصفح آخر أخبار ذلك العالم الأزرق.

جاءت زوجته. حيّته من عند الباب. طلبتْ منه التعجل في تغيير ملابسه فالغداء صار جاهزاً على الطاولة. ردّ عليها ببرود بينما كان منشدّاً إلى نقاشٍ محتدم داخل الهاتف. أجابها وهو يجلس على حافة السرير: "خمس دقائق وسأكون معكم".

بعد أكثر من خمس دقائق جاءه ابنه يستعجله.. غادر الصغيرُ الغرفة مع خمس دقائق أخرى.

شعر الرجل بوخزٍ مؤلمٍ في عينيه وألماً في رقبته، رمى بالهاتف جانباً بعد أن يئس من جدوى الحوار الذي مال عن فكرته الأساسية. تناهى إلى سمعه أصوات أحاديث متداخلة تلوّنها بعض الضحكات، لم يعِ منها كلمة ولكنها كانت توحي بالبهجة والفرح. ما هي إلا لحظات حتى دخل الغرفة غلاماً لا يتجاوز عمره السبع سنين. جلس بجانبه على السرير حاملاً جهازاً لوحياً تظهر في شاشته لعبة يراها لأول مرة. سأله مستغرباً بنبرةٍ مبحوحة: "من أنت يا ولد؟!". تطلّع الصغير في وجهه منذهلاً ثم أخذ يضحك ساخراً: "أنا حفيدك يا جدي. ألم تعرفني؟!". تجمدتْ ملامح الرجل محاولاً استرجاع ذاكرته لاستيعاب ما يسمعه.

مسرعةً نحو الصغير، دخلتْ زوجته الغرفة. تناولتْ الجهاز من بين يديه وخاطبته بنبرة آمرة: "أخرج وسلّم على عمتك قبل رحيلها". "وهل ستعيدينه إليّ بعدها؟". "سأعيده بعد مغادرة الجميع. هيا أذهب".

ألتفتتْ إلى زوجها مستفهمة بعد مغادرة الصغير. ألفتْه مذهولاً يحدق إليها كأنه يراها للمرة الأولى. اقتربتْ منه تسأله عن خطبه. سألها عن الجلبة في الخارج. قالت مبتسمة برضا: "إنّه زفاف ابنتنا.. أنسيت؟!". لم يعقّب على كلامها بحرف، أخذ يبتسم ببلاهة يفركُ جبينه وصدغيه حيرةً وارتباكاً.

قالت وهي تضرب كفه بخفة: "يجب أن تكون في الخارج الآن، فالجماعة على وشك الوصول". هزّ رأسه موافقاً. غادرتْ المكان قائلة: " هيا بسرعة. بدون دقائقك الخمس".

نهض مقترباً من المرآة. لمح فيها رجلاً يشبهه لكنه بدا أكبر سناً. اللون الرمادي يطغي على لحيته وشعر رأسه. أنفه يبدو أكبر حجماً وعينيه لم تعد بجاذبيتهما المعهودة، فالكيسين المنتفخين أسفلهما زادا وجهه بشاعةً، وزادتْه هلعاً. تحسّس ذقنه ثم جلد رقبته المتمدد قليلاً. نظر إلى صدره؛ ألفى أزرار قميصه لا تزال مفتوحة.

حلمُ الصغير

ملعونةٌ ذاكرتي لا تنسى ولا تُخطئ. وجوهٌ صغيرة تتجول في أروقتها بين الفينة والاخرى.. أسماءٌ ثلاثية، بالكمال والتمام، تقفز منها فجأةً دون أيّ مناسبة.

أتعرّفُ على طلابي بعد أن صاروا شباناً ورجالاً، متى ما ألتقيتهم في الطريق. أتذكر أحلامهم التي كانوا يخبرونني بها واحداً تلو الآخر؛ تُرى هل حققوها أم لا يزالون يسعون إليها.. أم أنهم ببساطة تناسوها؟!

في صباح الأثنين الماضي. شاهدتُ وجه أحدهم وهو لا يزال صغيراً في سن التاسعة كما عهدته. تأملته مبتسمة وأنا اشير بسبابتي نحو وجهه. سألته عن أسمه فأجابني على الفور:

– مصطفى.

– اسمك الكامل؟

– مصطفى محمود علوان.

قالها وهو يرنو إليّ مستغرباً. اومأتُ برأسي مبتسمة. إنّه ابن محمود علوان إذاً؛ الولد العبقري المشاكس. أما هذا الصغير، كما تبيّن لي بعدها، فقد كان زميلاً لحفيدي في المدرسة.

ملعونة ذاكرتي.. ها أنذا قد جاوزتُ الستين ولم تُصب بأيّ عطب! تركتْني ابنتي، بعد أن جلستُ على كرسي شبه متهاوٍ، على بعد مسافة ثلاثة أمتار عن الصيدلية التي قصدتْها ابنتي من أجل شراء الدواء الذي وصفه لي طبيب الأمراض القلبية. ألتفتُ بعدها إلى يساري، حيث جدارٍ مهترئ عُلقت عليه لافتات إعلانات وصور.. ما هي إلا ثوانٍ حتى لمحتُ عليه وجهاً اعرفه.

نهضتُ لأقترب منه أكثر، ربما أخطأتُ هذه المرة، فقد نسيتُ اليوم أن أضع نظاراتي الطبية. أخذتُ أتأمل ملامح وجهه وأتحسّسها.. لم أشأ أن أنزل بعينيّ إلى أسمه.

– أمي.. ماذا هناك؟!

ألتفتُ إليها بينما كفّي لا تزال على الصورة؛ تُخفي الأسم تماماً. سألتْني بقلق:

– هل تعرفينه؟

– حسن محمد سعدون..

أجبتُها وأنا أرفع كفي عن أسمه.

– بلى. إنّه هو. الابتسامة ذاتها ولكن.. لم يكُن هذا حلمه.

أمسكتْ بيدي بعد أن عجزتْ عن قول جملة مناسبة. تشبثتُ بيدها جيداً، أرمي بثقلي وهمّي عليها. هممنا بالمغادرة. ألتفتتْ إلى الصورة من جديد، تأملتْها بأسىً ثم قالت: "حتى الأحلام تتغير يا أمي؛ بلا شكّ أنّ الشهادة كانت حلمه الأخير".